

هدى شعراوي

يذكر اسم هدى شعراوي بتاريخ مجيد في نضال المرأة العربية من أجل تحررها وانعتاقها، ومن أجل أن تحتل الموقع الذي يعود لها في المجتمع. إلا أن هدى شعراوي، على أهمية الدور الذي لعبته في هذا النضال في مصر خصوصاً، لم تكن الرمز الوحيد لهذا النضال. بل شاركتها في هذا الموقع شخصيات نسائية من نوع ما تميزت به شعراوي من جرأة ومن كفاحية. وبعض هذه الشخصيات كن قد سبقتها في اقتحام هذا الميدان الصعب والمعقد من النضال. وهو نضال لم ينته، ولم تصل المرأة فيه إلى ما تحلم هي ويحلم المجتمع العربي بتحقيقه. وبالتأكيد فإن ما قامت به شعراوي وزميلاتها في ذلك الزمن المبكر هو ثورة إجتماعية وثقافية وإنسانية حقيقية يجعلهن بحق في عداد ثوار القرن العشرين الكبار.

ارتبط اسم هدى شعراوي في الربع الأول من القرن الماضي بالنضال على جبهتين: جبهة النضال لتحرير المرأة وجبهة النضال من أجل استقلال مصر. وتميزت في الجبهتين بجرأة نادرة وكفاحية غير مسبوقة في عالم المرأة المصرية والعربية في ذلك التاريخ، وباستقلالية في الموقف لم تتردد بالإستناد إليها في التعارض والتناقض مع زعيم الحركة الإستقلالية سعد زغلول في عز مجده. إذ انتقدت موقفاً له من الإنكليز اعتبرته تنازلاً غير مبرر وغير مقبول من زعيم البلاد أمام المستعمرين. وتروي شعراوي في مذكراتها تفاصيل طريفة عن جرأتها في النقاش والإختلاف مع سعد زغلول، وعن تعامل الزعيم المصري معها بكثير من الإحترام.

وتقدم الأديبة المصرية أمينة السعيد في المقدمة التي وضعتها لمذكرات هدى شعراوي شهادة مهمة لهذه الشخصية التاريخية تقول فيها: "هدى شعراوي هي بلا منازع قائدة حركة تحرير المرأة في العالم الإسلامي قاطبة. ولقد قضت ما لا يقل عن خمسين عاماً من حياتها وهي في صراع مرير من أجل رفع الظلم عن المرأة المسلمة عموماً، والعربية بوجه الخصوص. وكانت البادئة برفع الحجاب، والمناداة

بالمساواة الكاملة بين الجنسين، لتمكين نصف الشعب العربي من الخروج عن عزلته الإجتماعية والإنطلاق إلى عالم البناء والإنتاج.... لقد خاضت هدى شعراوي مجال السياسة الذي لم تكن تجرؤ على الإقتراب منه امرأة قبلها".

ومذكرات هدى شعراوي هي من أجمل كتب السيرة. فهي تتميز بالبساطة وبالسرد غير الممل لأحداث حياتها ولأحداث الحقبة التي عاشت فيها. وتضم إلى جانب ذلك مفاصل أساسية من كفاح المرأة المصرية والعربية والإسلامية دفاعاً عن حقوقها وعن الإنجازات التي تمكنت من تحقيقها.

ولدت هدى شعراوي في عام 1879. توفي والدها محمد سلطان باشا وهي كانت ما تزال في الخامسة من عمرها. وحصلت الوفاة، كما تروي في مذكراتها، وهو في طريق عودته من النمسا حيث كان يخضع للعلاج. وقد شكلت وفاة والدها الصدمة الأولى التي واجهتها في حياتها. وكان والدها شخصية مرموقة شغل في حياته مناصب رسمية عديدة، أهمها منصب رئيس مجلس النواب ثم رئيس مجلس شورى القوانين، ثم قائمقام خديوي. وتروي شعراوي بعض التفاصيل الغريبة عن عرابي وعن ثورته التي تتهمه فيها بالشطط وبكثرة الأخطاء استناداً إلى ما ترويها عن خلافات نشأت بين والدها وعرابي.

كانت في التاسعة من عمرها عندما ختمت القرآن. لكنها لم تستطع، كما تقول في مذكراتها، من قراءة أي كتاب غير القرآن. ثم تعلمت اللغة التركية. وعملت بدأب على تثقيف نفسها. فكانت تشتري الكتب من الباعة المتجولين خلسة لأن تعليم المرأة وتمتعها بالثقافة والمعرفة كانا من الأمور غير المرغوبة في الأسر المحافظة. لكنها مع ذلك تابعت كفاحها من أجل التعلم ومن أجل امتلاك المعرفة. وقد أضافت إلى امتلاكها اللغة التركية لغة جديدة هي اللغة الفرنسية، ثم فيما بعد اللغة الإنكليزية.

تروي شعراوي في المذكرات قضية زواجها الغريب الذي فرض عليها وهي في الثالثة عشرة من عمرها. إذ تقدم إليها رجل طاعن في السن ومتزوج وعنده أولاد. وقد قاومت بكل طاقتها ذلك الزواج. لكنها فشلت وأذعنت في نهاية المطاف وتزوجت منه وأنجبت ابنة. وقصة ذلك الزواج غريبة. فهي عانت كثيراً في مواجهة الزواج وخلال ارتباطها بزوجها، ثم في انفصالها عنه بمساعدة والدتها، ثم بعودتها إليه. ولعل هذا الزواج ذاته في مراحلها المختلفة ومعاناتها فيه هو الذي أسهم في بناء شخصيتها المتمردة التي حولتها مع مرور الأيام وتعاقب الأحداث في مصر وفي العالم إلى زعيمة كبيرة ومتميزة لحركة تحرير المرأة منذ وقت مبكر ضد التقاليد القديمة السائدة وضد النظام السائد وضد قوانينهما الجائرة.

إلا أن هذه الشخصية المميزة لشعراوي إنما كانت تتكون بالتدريج وسط الأحداث ووسط صعوبات حياتها، لا سيما معاناتها مع ابنتها التي ولدت مريضة، ومعاناتها مع حياة المرأة المصرية ومع حياة الشعب المصري في كفاحه من أجل تحرره من الإستعمار وتحقيق استقلال مصر.

تتوقف شعراوي في المذكرات عند حدث تاريخي في حياة مصر هو تأسيس الجامعة المصرية في عام 1908، الحدث الذي شكل بداية نهضة علمية وأدبية وثقافية عامة في مصر أسهمت في تحويل مصر إلى مركز متقدم في العالم العربي في هذه الميادين جميعها. وما أكثر الرموز العلمية والأدبية التي عبّرت عن هذه النهضة الكبيرة. وتشيد شعراوي على وجه الخصوص بدور الأدبية المصرية ملك حفني ناصف التي عرفت باسم "باحثة البادية"، لا سيما المحاضرات التي كانت تلقيها في الجامعة بعد تأسيسها. ومعروف أن "باحثة البادية" هي واحدة من رائدات الحركة النسائية قبل هدى شعراوي بإقرار شعراوي وبكثير من التقدير لها ولأخريات معها وقبلها مثل اللبانيات زينب فواز ومي زيادة ونظيرة زين الدين.

سافرت هدى شعراوي في العام الذي تلا تأسيس الجامعة مع عائلتها إلى أوروبا. وساحت في بلدان القارة. وتعرفت إلى معالمها وإلى حضاراتها وثقافاتهما. وأسهم ذلك في تعميق ثقافتها وفي تكوين عناصر التمرد والثورة في شخصيتها، ارتباطاً بما كان يجري في بلدها مصر في المجالين السياسي والاجتماعي. وحين عادت من رحلتها إلى أوروبا وجدت بلدها مصر في حالة غليان. وكان من أهم ما كان يحصل في تلك الحقبة من تاريخ مصر هو تعاظم النضال من أجل الإستقلال. وهو النضال الذي سرعان ما تحول إلى ثورة في عام 1919 كان يقودها سعد زغلول. وكان هذا النضال يتزافق مع بروز نهضة أدبية كانت تشارك فيها شخصيات نسائية مرموقة في مقدمتهن "باحثة البادية". وقد شجعتها تلك الحركة الأدبية على التفكير بتأسيس ناد أدبي للسيدات يجتمعن فيه للبحث في الشؤون الأدبية والاجتماعية. وإذ لقيت فكرتها الترحيب دعت إلى تأسيس ذلك النادي. واستعانت في تأسيسه بالكاتبة الفرنسية مارغريت كليمان التي كانت قد التقت بها قبل ذلك. فجاءت إلى مصر تلبية لدعوة من شعراوي، وعقدت في منزلها بحضور عدد من الأميرات أول اجتماع تأسيسي لذلك النادي الذي تشكل تحت اسم "جمعية الترقى الأدبي للسيدات". وشاركت فيه مي زياده. واختيرت لبيبة هاشم صاحبة مجلة "فتاة الشرق" لتكون سكرتيرة اللجنة التأسيسية.

تتحدث هدى شعراوي في مذكراتها باعتزاز عن دورها ودور المرأة المصرية في ثورة 1919 التي أعقبت نفي سعد زغلول، ثم استمرت بعد عودته من المنفى. وتذكر على وجه الخصوص كيف فازت بأكثرية الأصوات في انتخاب "اللجنة المركزية للسيدات" التي شكلت لمساعدة اللجنة المركزية للوفد المصري في النضال من أجل الإستقلال. ثم انتخبت رئيسة لتلك اللجنة. وكان من أوائل ما قامت به تلك اللجنة، التي تحولت فيما بعد إلى "الإتحاد النسائي المصري"، إصدار بيان يحدد بوضوح مطالب المرأة المصرية. وهذه المطالب هي كما جاءت في البيان: " 1-

مساواة الجنسين في التعليم وفتح أبواب التعليم العالي وامتحاناته لمن يههما ذلك من الفتيات تشجيعاً لنموهن من لها مواهب خاصة، وتسهيلاً للتكسب لمن تحتاج منهن ورفعاً لمستوى العقليّة العامة في البلاد. 2- تعديل قانون الانتخاب باشتراك النساء مع الرجال في حق الانتخاب ولو بقيود في الدور القادم، كاشتراط التعليم أو دفعها نصاباً معيناً على ما لها من الملك. ولا يكون من الإنصاف الاعتراض على اشتراك هذه الطبقة من النساء لا سيما وقانون الانتخاب يجعل للرجل الأمي والخالي من الملك حقاً في أن ينتخب وينتخب. وليس من المعقول ولا من العدل وأغلبية الرجال كذلك أن تحرم المرأة مع الشروط المتقدمة من المساواة بمثل هذا الجمهور من الرجال. 3- إصلاح قوانين الزواج وذلك: أ- بسن قانون يمنع تعدد الزوجات إلا لضرورة كأن تكون الزوجة عقيماً أو مريضة. ب- بسن قانون يلزم المطلق أن لا يطلق زوجته إلا أمام القاضي الشرعي."

منذ ذلك التاريخ بدأت هدى شعراوي مسيرتها الجديدة كرائدة حركة نهضة المرأة في مصر وفي العالم العربي. وكان من أوائل نشاطها في عام 1923 تلبية الدعوة التي وجهت إليها لحضور مؤتمر الإتحاد النسائي العالمي الذي عقد في روما. لكن شعراوي لم تشأ أن تكون هي من تمثل لوحدها نساء مصر في ذلك المؤتمر. إذ كانت تريد أن يكون التمثيل باسم نساء مصر وبمشاركة شخصيات نسائية أخرى. لذلك وجهت رسالة إلى عدد من الشخصيات النسائية دعتهن فيها إلى اجتماع لتأسيس الإتحاد النسائي المصري. وعقد الاجتماع الذي انتخب وفداً نسائياً مصرياً بقيادتها إلى ذلك المؤتمر. وصار الإتحاد المصري عضواً في الإتحاد العالمي. وكان ذلك حدثاً مهماً في تاريخ الحركة النسائية المصرية. وهكذا بدأت شعراوي في نضالها الجديد على رأس حركة نسائية قوية من أجل انتزاع حقوق المرأة كمهمة أولى، والمشاركة في الوقت عينه بقوة في الحركة الوطنية المصرية جنباً إلى جنب مع الرجل.

توالى حضور هدى شعراوي على رأس الوفود النسائية إلى المؤتمرات العالمية بعد أن كانت قد انتخبت في المؤتمر العاشر للإتحاد النسائي العالمي عضواً في لجنته التنفيذية ممثلة للنساء في الشرقين الأدنى والأقصى. وأهمية مشاركة المرأة المصرية في تلك المؤتمرات إنما تكمن في أنها ساهمت في توضيح وتحديد المهمات التي تتصل بنضال المرأة المصرية من أجل الوصول إلى حقوقها. يضاف إلى ذلك أن تلك المشاركة قد وضعت المرأة المصرية، والعربية كذلك، في صلب النضال من أجل القضايا العالمية الكبرى، وفي مقدمتها قضية السلم العالمي، إضافة إلى ما كانت قد بدأت تمارسه في النضال الوطني من أجل الإستقلال.

سافرت هدى شعراوي إلى جهات العالم الأربع في أعقاب ذلك المجد الذي حققته لشخصها وللمرأة المصرية والعربية. وكانت تهتم في سفراتها في أمرين: طرح قضية المرأة في بلادها إلى جانب القضية الوطنية، والتعلم مما كانت تتعرف إليه من أمور ذات صلة بوضع المرأة في البلاد الأخرى ومن ثقافات تلك الشعوب ومن إنجازاتها.

إلا أن شعراوي كانت، وهي تتقدم في طرح قضية المرأة في مصر وفي العالم العربي، تذكّر على الدوام بالدور الريادي لقاسم أمين رائد الدفاع عن حقوق المرأة، من دون أن تنسى دور السيدات اللواتي سبقنها في حمل راية الدفاع عن حقوق المرأة. لكن قاسم أمين كان الرمز الأكبر الذي كانت تتذكره مع زميلاتها. وكانت تحتفل في مناسبات عدة بذكره إشادة بدوره الريادي.

استناداً إلى ما تكوّن عند هدى شعراوي من تجارب في نضالات المرأة المصرية ومن خبرات اكتسبتها في سفراتها إلى الخارج ومن مشاركتها في المؤتمرات النسائية العالمية، توصلت في عام 1944 إلى الإسهام مع زميلات لها في العالم العربي إلى عقد مؤتمر الإتحاد النسائي العربي الذي حضرته مندوبات من عدد من البلدان العربية. وأحدث انعقاد المؤتمر صدى كبيراً على الصعيدين العربي والدولي

إلى الحد الذي جعل زوجة الرئيس الأميركي روزفلت تبرق إلى هدى شعراوي مهنة إياها بانعقاد ذلك المؤتمر.

جدير بالذكر، ونحن نتحدث عن دور هدى شعراوي وعن دور الحركة النسائية المصرية خصوصاً، أن نشير إلى أن قضية التحرر من الحجاب كانت من أولى الإنجازات التي حققتها تلك الحركة منذ البدايات. ومعروف أن سعد زغلول هو الذي بادر عندما استقبل المهنيين، لدى عودته من المنفى في عام 1920، إلى نزع النقاب عن وجه هدى شعراوي. وصار ذلك التاريخ يؤرخ به كبداية في نضال المرأة من أجل تحررها، ليس لأن السفر كان هدفاً بذاته، بل لأنه كان شكلاً من أشكال التعبير عن معنى المساواة بين المرأة والرجل، ومؤشراً إلى بدايات تحررها، وإلى الانتقال للعب دورها في المجتمع أسوة بالرجل في كل ميادين النشاط السياسي منه والإجتماعي والثقافي وسوى ذلك من الميادين.

كان من أهم ما قامت به هدى شعراوي في نضالها لإبراز دور المرأة في الحياة الإجتماعية هو إصدارها في عام 1925 مجلة "المصرية" بالفرنسية التي سلمت رئاسة تحريرها إلى سيزا نبراوي تلميذة شعراوي وصديقتها ومكملة رسالتها بعد وفاتها. لقد كان لمجلة "المصرية" حضور كبير في مصر وفي الخارج. وهي كانت مجلة شهرية نسائية تهتم بالقضايا الإجتماعية وبالفن. وهو التعريف الذي وضع للمجلة تحت عنوانها مباشرة. وكانت تضم أعدادها مقالات تتناول مجمل القضايا التي تعالجها أية مجلة من المجلات التي كانت تصدر في مصر. وكان من بين تلك القضايا ما يهم قضية المرأة، حقوقها ونشاطاتها والبيانات التي كانت تصدر عن الهيئات النسائية العالمية وعن الإتحاد النسائي المصري، وكذلك بعض خطب هدى شعراوي. وفي عام 1937 صدرت المجلة باللغة العربية.

رحلت هدى شعراوي في عام 1947. وتركت للأجيال تاريخها وتراثها الغني الذي يتمثل بالنضال بدون هوادة دفاعاً عن حقوق المرأة. كما يتمثل بالمواقف

الجريئة التي تضمنتها محاضراتها ومقالاتها والبيانات التي أصدرتها. وأقتطف فيما يلي بعض ما جاء في تلك المواقف في بعض محاضراتها نقلتها من الجزء الثاني من الكتاب المهم الذي أصدرته الباحثة السورية جورجيت عطية في جزئين تحت عنوان "هدى شعراوي - الزمن والريادة".

تقول هدى شعراوي في خطاب لها نشر في العدد الخامس عشر من مجلة "المصرية" في عام 1926: "دخلت المرأة المصرية الحياة العامة من باب السياسة، لأننا في الوقت الذي كنا نفكر فيه في إصلاح حال المرأة وتنويرها، قامت ثورة 1919. وكان حتماً أن يقف كل مصري ومصرية في صفوف الثوار حتى تنال بلادنا استقلالها وحريتها، وتكون صاحبة الكلمة الأولى والأخيرة في أمورها ومستقبلها... وبعد أن استقرت الأمور بعض الشيء في عام 1926، كان علينا أن نتجه بالجهد الأكبر إلى المجال الاجتماعي وأن نهتم بالقضايا الاجتماعية والنسائية باعتبار أن المرأة هي نصف مجموع الأمة، وكل ما تحققه ينعكس على الحياة العامة ويدفع إلى تطور المجتمع".

وتختتم كلمتها بعرض أحد ثلاثة أمور تتعلق بالمرأة، الثالث منها هو: "...مشروع تقرير نرغب في عرضه على الوزارة، يتضمن طلب إصلاح خمس مسائل كبرى تخص المرأة، وهي: 1- وضع حد لتعدد الزوجات، 2- وضع حد لفوضى الطلاق الحاصلة الآن، 3- إصلاح القوانين الخاصة بما يسمى دار الطاعة، 4- حق الأم في حضانة أولادها، 5- إلغاء منشور سنة 1924 المعطل لقانون تحديد سن الزواج..".

وتقول في نداء إلى نساء الشرق نشر في العدد 39 من المجلة في عام 1938: "... فباسم العدل والإنسانية أهيب بكل الجمعيات النسائية وغيرها من مختلف الأديان والجنسيات أن تتاصرنا وتمد إلينا يد المساعدة مساهمة في أداء هذا الواجب الإنساني الجليل بإيفاد مندوباتها للإشتراك معنا في هذا المؤتمر الذي قررنا

عقدته بالقاهرة في الأسبوع الأول من أكتوبر القادم. وسنبحث فيه مشكلات "مشكلة فلسطين، وطرق معالجتها بقرارات ترسل إلى الجهات الإنجليزية المختصة التي نعتقد أنها ستصغي إلى آراء الناصحين المرشدين مكثفية بما قد أريق من دماء بريئة في بلاد هي مسؤولة عن الأمن فيها ومنتدبة لحماية أهلها...".